Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ولنوقن من أن عقله كان عقلاً تحليليًا ، ومع أن تحليله كان مبسطًا تبسيطًا مشتطًّ الحدِّ إلى درجة مزعجة فإن له قيمة تفسيرية . ومن ثمَّ كان عمله من الأعمال التى نطلق عليها خلاّقة . ومهما كانت أقواله عن التجارب الكيميائية ، فمن الواضح أنه حين يكتب عن مؤلف كبير فى ضوء منهج تمازج العصر ، والجنس ، والبيئة – كما تتمازج أصوات الوتر الثلاثة فى قصيدة براوننج Browning عن Abt Vogler – فإنه لا ينتج صوتًا رابعًا ، ولكنه يخلق نجمًا .

ولقد أُضِيف إلى مجموعة عناصر تين منذ منتصف القرن عنصر جديد ، هو العنصر الاقتصادى الذى قدمه أساسًا ماركس وإنجلز إلى حومة نقاش الظاهرة التاريخية . فالنقاد غير الماركسيين أنفسهم ، كانوا وقت ذاك قد انتهوا إلى أن يأخذوا فى اعتبارهم تأثير الطبقات الاجتماعية . ففى فصوله المتعلقة بغزو النورمانديين لإنجلترا أوضح تين أن الفرق بين الأدب الذى أنتجه النورمانديون والأدب الذى أنتجه السكسونيون هو – إلى حد ما – الفرق بين طبقة حاكمة من جهة ، وطبقة مهزومة مقهورة من جهة أخرى ، بالإضافة إلى هذا ، فإن ميشيليه فى مجلده عن « الوصاية على العرش » – الذى تم إعداده فى نفس السنة التى ظهر فيها « تاريخ الأدب الإنجليزى » – يدرس « مانون ليسكو » Manon Lescaut كوثيقة تبين وجهة نظر الطبقة العليا الصغيرة قبل الثورة الفرنسية ، إلاّ أن ماركس وإنجلز قد استمدّا مفهومهما عن الطبقات الاجتماعية من الطرق التى بمقتضاها يصنع الناس معايشهم ، ويدعوان ذلك « وسائل الإنتاج » . ولقد مالا إلى اعتبار هذه العمليات الاقتصادية كأساس للحضارة .

إن مادية ماركس وإنجلز الديالكتية ليست فى الحقيقة مادية جدًّا كما تبدو ، وإنما فيها جزء كبير من المثالية الهيجلية التى اعتقد ماركس وإنجلز أنهما قد تخلصا منها . كما أنهما لم ينظرا – فى أى وقت – إلى الأشياء نظرة ميكانيكية ، كما ابتدأ تين ذلك فى صراحة ، بل إن نظريتهما عن علاقة الأعمال الأدبية بما يسميانه « القاعدة الاقتصادية » كانت أقل بساطة من نظرية تين الخاصة بالعصر والجنس والبيئة . فقد اعتقدا بأن الفن ، والسياسة ، والدين ، والفلسفة ، والأدب أشياء تنتمى إلى ما يسميانه « البناء الفوق » للنشاط الإنسانى . غير أنهما رأيا أن ممارسى كل مجال من هذه المجالات المختلفة قد مالوا فى الوقت نفسه إلى تكوين مجموعات اجتماعية ، وأنهم كانوا دائماً ينسحبون من نوع التحالف القائم على الطبقات الاقتصادية ، كى يؤسسوا هم تحالفاً مهنيًا خاصًّا بهم . بل الأبعد من ذلك ، أن نشاطات البناء الفوق فى استطاعتها أن يؤثر أحدها فى الآخر ،